ISSN 0030 – 2353 :
EISSN: 2602-697X
مجلة أبعاد
مجلد 11، العدد 01 (خ)، 2024

رثاء الممالك والمدن الأندلسية وخصائصه الفنية "طليطلة وقرطبة نموذجا"

The lamentation of Andalusian kingdoms and cities and its artistic characteristics "Toled o and Cordoba as a model

بخوش دهيليس dehilis bekhouche * دراسات أدبية جامعة تيسمسيلت– (الجزائر)
bekhouch.Dehilis @cuniv-tissemsilt.dz مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة
قدوية يعقوبي دراسات أدبية مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة.
kadauiayakoubi@gmail.com – (الجزائر)

*********************;

تاريخ الإرسال: 2022/06/19	تاريخ القبول: 2024/03/20	تاريخ النشر: 2024/08/04

ملخص:

يدور هذا البحث حول رثاء الممالك والمدن الأندلسية باتخاذ طليطلة وقرطبة نموذجا لشعر الفجيعة في بلاد الأندلس، وإبراز خصائصه الفنية، فلا شيء أحلك خطبا، وأشد إيلاما من فقدان عزيز، وما بالك إذا كان هذا العزيز مدينة أو مملكة من بلاد عزيزة هندس العرب والمسلمون الأوائل خارطتها الجغرافية بحدود سيوفهم المغربية، إنه شعر يؤرخ لمرحلة مؤلمة من تاريخ المسلمين والعرب، شعر ينضح بكل معاني الأسى العميق والتأسي، ومشاعر الحسرة والألم، مع استثمار ألوان البيان لتقريب المعاني وتشخيصها، وبث الحركة والحياة فيها.

الكلمات المفتاحية: رثاء؛ الممالك والمدن؛ طليطلة؛ قرطبة؛ الفجيعة.

Abstract:

This research revolves around the lamentation of Andalusian kingdoms and cities by taking Toledo and Cordoba as a model of bereavement poetry in Andalusia, and highlighting its artistic characteristics, nothing is darker, more painful than the loss of a loved one, and how about if this dear is a city or kingdom of a country Aziza Hinds arabs and early Muslims geographically map the borders of their Moroccan swords, it is a poetry that dates back to a painful period in the history of Muslims and Arabs, poetry that exudes all meanings of deep sorrow and despair, feelings of sorrow and pain, while investing the colors of the statement

* المؤلف المراسل: bekhouch.Dehilis @cuniv-tissemsilt.dz

to bring the meanings closer and its diagnosis, and the transmission of movement and life in it.

Keywords: Lamentation, kingdoms and cities, Andalusian, Toledo, Cordoba, Bereavement.

.

1. مقدمة:

الرثاء موسيقى كئيبة لخلجات النفس الحزينة، يعزفها الشجى على أوتار القلوب المنكسرة المنهكة، ويمتد هذا الغرض إلى زمن بعيد، وذلك منذ أن وجد الإنسان على وجه البسيطة، حيث وجد معه الموت، هذا الكأس الزؤام الذي يتجرعه الجميع تداولا.

والرثاء لغة" رثأ مهموزة الألف وتدل على معنى الخلط والاختلاط، نقول أرثأ اللبن: خثر، وفي المثل: " الرثيئة تفتأ الغضب"، والرثيئة اللبن الحامض يحتلب عليه فيخثر، ومنها ارتثأ عليهم أمرهم إذا اختلط" (الزمخشري، 1979، صفحة 154).

واصطلاحا البكاء على الميت وتعددا مناقبه، وهو مدح للأموات، ويقال:" رثى فلان فلانا يرثيه رثيا إذ بكاه بعد موته، ورثوت الميت إذ بكيته وعددت محاسنه (ابن منظور، صفحة 309/14)، وقيل للمرأة:" رثاءه ورثاية: أي كثيرة البكاء والنواح لبعلها، ولمن يكرم عندها وسميت نواحة (ابن منظور، صفحة 309/14) " والترثي هو ندب الميت، ورثيت له: رحمته ويقال رثى له: أي رق له، "ورثيت الميت بالشعر، وقلت فيه مرثية ومراثي، وقد ورد جمع المرثية على مراثي ولم يرد جمع للرثاء" (الزمخشري، 1979، صفحة 155).

إشكالية الدراسة:

انطلاقا من التمهيد السابق نريد أن نعرج على فن الرثاء لدى الأندلسيين، وبالذات رثاء الممالك والمدن لنطرح الإشكالية التالية: كيف جسد الأندلسيون فن رثاء الممالك والمدن عموما وفي طليطلة وقرطبة خصوصا؟ وماهي أبرز خصائصه الفنية شكلا ومضمونا؟.

تساؤلات الدراسة:

وتتمثل فيمايلي:

- ماهي أنواع الرثاء؟.
- كيف رثى شعراء الأندلس طليطلة وقرطبة؟.
- ماهي خصائص رثاء الممالك والمدن من حيث الشكل والمضمون؟.

أهداف الدراسة:

ويمكن حصرها في النقاط التالية:

- تحديد أنواع الرثاء.
- إبراز شعر الفجيعة في رثاء قرطبة وطليطلة.
- تحديد الميزات الفنية لرثاء الممالك والمدن الأندلسية.
- التأكيد على تميز الأندلسيين في فن رثاء الممالك والمدن وتفوقهم على المشارقة.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الموضوع في إبراز الفارق ببين رثاء المغاربة والمشارقة من خلال اتخاذ طليطلة وقرطبة نموذجا، والخروج بالسمات الفنية لهذا الغرض.

منهج الدراسة:

تم توظيف المنهج الوصفي التحليلي في محاولة منا لبحث الموضوع بشكل موضوعي يمكننا من الإجابة عن الإشكالية وتساؤلات البحث.

وتناولت العديد من الدراسات فن رثاء الممالك والمدن قديما وحديثا ومنها:

شعر الرثاء في عصر ملوك الطوائف لعبد اللطيف يوسف عيسى، الرثاء في الأندلس لفدوى عبد الرحيم عودة، ومقال بعنوان تجليات رثاء الدول والممالك في الشعر الأندلسي لسامية جباري.

2. أنواع الرثاء:

تعددت أنواع الرثاء وأشكاله ومنها:

1.2 الندب:

ويعد من أقدم صور الرثاء، وهو " النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون، ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع" (ضيف، صفحة 12).

وهذا النوع من الرثاء ارتبط بالنساء كثيرا حيث كنا يندبن موتاهن في الحروب والغارات خصوصا، ويعددن صفاتهم في لوعة متقدة، ومشاعر صادقة ويفرطن في نحيبهن ونواحهن...، وتهذب هذا النوع من الرثاء بعد ظهور الإسلام وتأثره بالقيم الروحية التي جاء بها هذا الدين الجديد.

2.2 التأبين:

يرتبط التأبين في الأصل بالثناء على الشخص الحي أو الميت، ثم " اقتصر استخدامه على الموتى فقط، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت، فيذكروا مناقبه، ويعددوا فضائله، ويشهروا محامده" (ضيف، صفحة 54).

والتأبين هو إظهار لمدى الخسارة التي تلحق بالأشخاص جراء فقدان هذا الميت لما يحمله من فضائل كريمة، وشيم نبيلة.

3.2 العزاء:

يمثل مرتبة عقلية ينتقل فيها الشخص من التعامل مع الموت في جانبه الوجداني إلى جانب عقلي فلسفي من خلال التأمل في الموت وأخذ العبر منه، من خلال الصبر والرضى بالقضاء والقدر" فتلك سنة الكون، نولد، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء

ثم نموت، ولنقبل الحياة على أنها دار زوال وانتقال، وليست دار بقاء واستمرار" (ضيف، صفحة 86).

3. فن رثاء الممالك والمدن في الأندلس:

فن الرثاء من الفنون الشعرية التقليدية عرف تطورات وتغييرات فنية عبر العصور بحسب تأثير العوامل والظروف الدينية السياسية والاجتماعية، "ولم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت وتعداد المناقب، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة" (الركابي، 1966، صفحة 114).

وبرع الأندلسيون في فن رثاء الممالك والمدن، وتوسعوا فيه بعد أن غلبهم أعداؤهم النصارى، وسلبوهم ملك الآباء والأجداد فوقفوا مذهولين مفجوعين، وهم يرون دولهم ومدنهم تتساقط تباعا، وملكهم الذي شيده آباؤهم وأجدادهم تتداعى أركانه، وتنهد حصونه أمام مرأى أعينهم، فرثوه بشعر ينبض أسى، ويفيض حزنا

1.3 رثاء قرطبة:

يعتبر سقوط الدولة الأموية في قرطبة سنة 633هـ بداية لانهيار الوجود الإسلامي والعربي في بلاد الأندلس، والشيء الذي يندى له الجبين ويبقى وصمة عار في التاريخ هو لجوء " أحد أمراء البيت الأموي إلى استقدام البربر من وراء المضيق ويلقي بهم بلا وازع ولا نظام في قرطبة، فيلحقون بها الدمار الشامل، ويهدمون قصور الزهراء العظيمة قبل أن يمضي نصف قرن على بنائها" (قجة، 1985، صفحة 215).

ونجد في أدب المشارقة نماذج من شعر رثاء الممالك والمدن، ولكنهم لم يبلغوا شأو

الأندلسيين، ولم يستقل هذا الفن بذاته عندهم " وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإنه لمن المفيد أن نشير إلى أن مصاب قرطبة الجسيم إنما يعيد إلى ذاكرتنا خطب البصرة الفادح، فمثلما أصاب البصرة ما أصابها حين اقتحمها الزنج، دهى قرطبة ما دهاها على يد البربر" (الدقاق، 2006، صفحة 207).

يقول ابن الرومي:

" ذاد عن مـــــقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السـجـام
أي نوم من بعد ما حل بالبصرة ... من تلكم الهنات العـــظـام
دخـــــــلوها كأنهم قطع الليل ... إذا راح مـــــــدلهم الـظلام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطـام
كم فتاة بخاتم الله بــــكر ... ضحوها جهرا بـغير اكتتـام" (بسج، 2002، صفحة 338).

ويتقاطع ابن حزم مع ابن الرومي في ميمته في رثاء قرطبة التي كانت" منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام..." (الشنتريني، 1939، صفحة 22).

يقول ابن حزم:

سلام على دار رحلنا وغـودرت ... خلاء من الأهلين موحشة قـــــفـرا
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا ... ولا عمــرت من أهلها قبلنا دهــرا
فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا ... ولو أننا نستطيع كنت لـنا قبـــرا
ولكن أقدار مـن الله أنفــذت ... تدمرنا طوعـا لما حل أو قهـــرا
فيا خير دار قد تركت حميـدة ... سقتك الغوادي ما أجل وما أسرى

ويستفتح ابن حزم أبياته السابقة وفق نمطية القصيدة العربية التقليدية التي يقف الشاعر فيها على الأطلال لما تمثله من هيبة وجلال في النفس، فالشاعر هنا يتحسر على معالم قرطبة التي صارت أثرا بعد عين، موحشة مقفرة، وكأنها ما كانت عامرة من قبل، فيتألم الشاعر لحالها الذي كان أمرا محتوما، وقضاء مقدرا، داعيا إليها بالسقيا سيرا على نهج القدامى بالدعاء لأرض المحبة بالغيث والخصب.

ويسير ابن شهيد، صديق ابن حزم على خطاه بعد أن شهد فاجعة انهيار قرطبة وأيام شبابه مقبلة، فعكرها هذا الخطب الجلل فيقول:

ما في الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر
جار الزمــان عليهـم فتفرقــوا في كل ناحيـة وبـــاد الأكثـــر
فلمثل قرطبة يقل بكـاء مــن يبكي بعين دمعها متفـــجـــر
عهدي بها والشمل فيها جامع من أهلها والعيش فيها أخضر
يا جنة عصفت بها وبأهلهـا ريح النوى، فتدمرت وتدمروا

وينهج ابن شهيد نسقا مقاربا لابن شهيد في أبياته السابقة من حيث المقدمة الطللية فهو يسترق الأخبار عن حال قرطبة التي صارت خرابا وقفرا، بعد أن سطا الزمان على أهلها وشتتهم وأبادهم، وحالها المزري ينضب العيون الباكية من مائها، كيف لا وقد كان جمعها مشتملا، وأهلها حياتهم هنيئة سعيدة كجمال بيئتها الخضراء والتي كانت جنة الدنيا عصفت بها وبسكانها نوائب الدهر ومحنه.

ويعد ابن عصفور الحضرمي من الشعراء الذين بكوا قرطبة وتحسروا على أيامها الزاهية، وعهودها الباهية في أكثر من موضع، ورثاها ابن فرج السميسر بقوله:

بك على قرطبـــة الـــزيـــن فقـــد دهتـــها نظرة عيـــن
أنظرها الدهـــر بـــأسلافـــه ثم تقاضـى جملـة الـديـن
كانت على الغاية من حسنها وعيشهـــا المستعـذب اللين
فانعكس الأمر فـما إن ترى بها ســرور بيــــن اثنيـــن
فاغد وودعها وســـر سالمـا إن كنت أزمـعت على البين

والشاعر في أبياته السابقة يرجع نكسة قرطبة إلى نظرة عين حاسدة بفعل جمالها الأخاذ، الذي انقلب إلى تعاسة وحزن، ولكن الشاعر يبدو عليه الضعف من حيث الموقف في نهاية قصيدته من خلال استعداده للرحيل عن قرطبة طلبا للسلامة، ومن خلال الصور الشعرية حيث جعل من الدهر مانحا لقرطبة دينا من السعادة أو قرضا من الفرح طويل الأمد، ثم طالبها برد الدين دفعة واحدة.

وهذه النماذج الشعرية في رثاء قرطبة تقوم على ثنائية متناقضة أولاها حاضر قرطبة التعيس بوجهه السوداوي القاتم ومصابها المفجع، وما حدث في هذا الحاضر من تقتيل وتدمير وتفجيع وتهجير...، وثانيها ماضيه السعيد وما انطوى عليه من أنس وسعادة وفرح وسلام.

ISSN 2353 – 0030 :
EISSN: 2602-697X
مجلة أبعاد
مجلد 11، العدد 01 (خ)، 2024

2.3. رثاء طليطلة:

سقطت طليطلة سنة 478هـ في حملة خبيثة تخدم النصرانية "وخرجت طليطلة من يد المسلمين إلى الأبد، بعد أن حكموها زهاء أربعة قرون...، وجاء سقوطها ضربة قاسية للمسلمين في الأندلس، لأنها تتوسط شبه الجزيرة، وتستطيع من موقعها هذا أن تهدد جميع دوا الطوائف" (طقوش، 2010، صفحة 471).

ويمثل سقوطها حدثا جللا وأهمية بالغة " لأن طليطلة مدينة كبيرة، ومن أشهر حواضر الأندلس، ولأنها فضلا عن ذلك كانت عاصمة مملكة القوط في إسبانيا قبل الفتح العربي، ومن هنا كان رد فعل العرب يتناسب مع مغزى ذلك الحدث حين أدرك المعتمد خطورة الوضع، وحين هرع يوسف بن تاشفين إلى نجدته، وما كان من أمر معركة الزلاقة المظفرة، ثم ما آلت إليه الأمور بعدئذ من تحول تاريخي كبير أدى إلى دخول الأندلس في حوزة المرابطين" (الدقاق، 2006، صفحة 222).

وتأثر الشعراء الأندلسيون بسقوط طليطلة، ورثوها بقصائد سنية تبين مقدرتهم العجيبة في" رثاء الممالك الزائلة، والأقطار الضائعة، والدول الآفلة، وندب الملوك التي
تنتزع عروشها، وتخلع عن سلطانها، لم يدركهم في ذلك سابق، ولم يلحقهم فيه تابع" (عبد العزيز، 1936، صفحة 136).

ويصف لسان الدين بن الخطيب هذا الخطب الجلل، وهذه الفاجعة المهولة فيقول" وحسبك بها من فجيعة، وأعظم بها من مصيبة وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون، وعن عواقب الإسلام لاهون" (لسان الدين، 1956، صفحة 242).

ويؤرخ ابن عسال اليحصبي لسقوط طليطلة بقوله:

يا أهل الأندلس حثوا مطيكـم		فمـا المقـام بـها من الغلــط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى		ثوب الجزيرة منسولا مـن الوسط
ونحن بين عدو لا يـــفارقنــا		كيف الحياة مع الحـيات في سفط

وأثارت الأبيات السابقة حفيظة الأدباء والنقاد عبر العصور بين القبول والإنكار واختلفت قراءتهم لها، لأنها كسرت أفق انتظار المتلقي، وبالتالي تعددت التفسيرات والتأويلات.

وكان ابن بسام في كتابه الذخيرة من الذين تجاهلوا ابن العسال بقوله" وفي ذلك
يقول بعض الشعراء"، وكأن ابن العسال في نظره بدلا من البكاء على طليطلة، وشحذ الهمم، وترميم القلوب الدامية، وجبر النفوس المنكسرة سارع إلى الدعوة إلى الفرار

والهروب.

وهذا التفسير تفسير قاصر لأن ابن بسام حمل هذه الأبيات على ظاهر القول، لأن بها عيب من العيوب يأباه العربي، وهو الفرار يوم الوغى لدى الجاهليين، والإدبار والتولي يوم الزحف في قاموس المسلمين.

ويشاطر الطرابلسي ابن بسام الرأي بقوله" والشاعر هنا، يحث الناس على الفرار والهروب، ويعتبر أن مقام الأندلسيين بعد مصيبة طليطلة من الغلط، فهو يصدر عن هذه الروح المنهزمة، ويعبر عن هذا التحطيم الداخلي الذي يعاني منه" (الطرابلسي، 1981، صفحة 157).

ومن القراءات الإيجابية والتي تعد انتكاسا للقراءة الانهزامية لأبيات ابن عسال قراءة الدكتور شلبي الذي يرفض القراءة السطحية والمتسرعة في إطلاق الأحكام، وذلك أن ما قاله ابن عسال في نظره يتجاوز" التحذير وتجسيم الخطر، لتتحرك النفوس، وتهب دفاعا عن طليطلة، فإن الدفاع عنها دفاع عن النفس" (شلبي، 1978، صفحة 318).

والحقيقة أن صرخة ابن عسال صرخة صاعقة صادمة لا عهد للمتلقي الأندلسي بها، كيف لا وهو الذي ألف الخطاب الرومنسي الرقيق ينساب رقراقا مع جمال الطبيعة الأندلسية بكل تمظهراتها الأنيقة، ولكنها صرخة تحمل في طياتها نظرة تأملية، تبحث عن منفذ ونجاة لأهله بعدما وقعت الواقعة المرة، وسقطت طليطلة في أيدي النصارى، وهي القلب النابض للأندلس.

وهو بهذا الصوت المرتفع الأجش يقرع النفوس، ويوقض المواجع، فلعلها تكون صرخة الأمل الأخير الذي يشحذ الهمم، ويلهب الحمية في النفوس، لتستيقظ من سباتها العميق، وتقاعسها المهين فتكسر قيود الذل والخنوع، وترأب الصدع، وترتق الفتق الذي لحق بها.

ووردت قصيدة أخرى في رثاء طليطلة، ذكرها المقري التلمساني في "نفح الطيب"، وعدد أبياتها اثنان وسبعون بيتا دون أن يذكر صاحبها، ومن أبياتها:

لثكلك كيف تبتسم الثغور سرورا بعدما بئست ثغور؟
لقد قصمت ظهورا حين قالوا أمير الكافرين له ظهور
طليطلة أباح الكفر منها حماها إن ذا نبأ كبير
كفى حزنا بأن الناس قالوا إلى أين التحول والمسير
ولا ثم الضياع تروق حسنا نباكرها فيعجبنا البكور

وهذه القصيدة مكتنزة بالمعاني، حافلة بالدعوة إلى الجهاد، والتحريض على الثورة في وجه العداة الغاصبين، بل إن الشاعر يضرمها ثورة في وجه أهلها الذين ارتضوا الذل والعبودية، وقبلوا الخنوع والهوان، ومطلعها مأساوي ينم عن قلب مفجوع، وشعور مكلوم لمدينة قصم سقوطها الظهور، وانفطرت له القلوب، كيف لا وقد عاث فيها الكفار فسادا، محولين معالمها الإسلامية إلى نصرانية، وفي ذلك يقول:

وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير
فعادت دار كفر مصطفاة قد اضطربت بأهليها الأمور
مساجدها كنائس، أي قلب على هذا يقر ولا يطير

وحتى وإن هيمن على القصيدة النظرة السوداوية التشاؤمية إلا أن الشاعر يرسل بشعاع أمل خافت وسط نور بات في قوله:

ونرجو أن يتيح الله نصرا عليهم إنه نعم النصير.

والقصيدة في" جملتها سهلة سائغة بارئة من التكلف والافتعال، وتعتمد البساطة والمراوحة بين الإثارة والتفجع والسرد القصصي، ولتعدد الوسائل الفنية فيها كانت حقيقة بالوقوف عندها، وقد خلت من زخارف الصور حتى كأنها في بعض أجزائها قطعة نثرية بسيطة، وكأنها لالتزامها الواقع أحيانا فقرة تاريخية لا قصيدة " (عباس، 1997، صفحة 149).

4. الخصائص الفنية لشعر الفجيعة الأندلسي:

انفرد شعر الفجيعة الأندلسي بخصائص وسمات جديدة ميزته عن الأغراض الشعرية الأخرى، ومن خلال طرح النماذج الشعرية السابقة الخاصة برثاء قرطبة وطليطلة يمكننا أن نستخلص أهم الخصائص الفنية المميزة لهذا الفن، وذلك من حيث:

1.4 المضمون:

يغلب على هذا النوع من الرثاء سمة الأسى العميق جراء ما لحق هذه الدول والممالك من فجيعة حيث يعمد الشاعر إلى وصف حجم المأساة، وتأثيرها على النفسيات المنهارة، والنفوس المنكسرة، وتصوير ما أصاب الإسلام والمسلمين من ذل وهوان وفي هذا السياق يقول ابن حزم:

فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا ولو أننا نستطيع كنت لنا قبرا
ولكن أقداراً من الله أنفذت تدمرنا طوعاً لما حل أو قهرا
ويا خير دارٍ قد تركت حميدةً سقتك الغوادي ما أجل وما أمرا

ويسعى الشعراء إلى التماس العظة والتأسي في قيام الدول ثم زوالها، باعتبار أن الدهر مجبول على الكدر، وأيامه دول تقبل وتدبر، وعلى هذا النسق يسير ابن حزم في هذه القصيدة فيواصل القول:

فصبراً لسطو الدهر فيهم وحكمه وإن كان طعم الصبر مستثقلاً مرا
لئن كان أظمانا فقد طال ما سقى وإن ساءنا فيها فقد طال ما تيسرا
سنصبر بعد اليسر للعسر طاعةً لعل جميل الصبر يعقبنا يسرا

ويصور الشعراء ما أصاب المسلمين من ذل وهوان بفعل الدهر حينا، وبفعل أيديهم أحيانا حيث يقول ابن شهيد:

جار الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم نورا تكاد له القلوب تنور

ويعمد الشعراء الأندلسيون إلى إبراز المعالم الجمالية لمدنهم، والتي صارت أثرا بعد عين مبرزين تعلقهم بديارهم التي أخرجوا منها غصبا وعنوة، حيث يواصل ابن شهيد القول:

يا طيبهم بقصورها وخدورها وبدورها بقصورها تتخدر
والقصر قصر بني أمية وافر من كل أمر والخلافة أوفر
والجامع الأعلى يغص بكل من يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
ومسالك الأسواق تشهد أنها لا يستقل بسالكيها المحشر

ويدعو الشعراء إلى استنهاض همم المسلمين في شتى البقاع والأقطار لمد يد العون إلى إخوانهم المضطهدين للذود عن الإسلام والمسلمين، والتطلع إلى رجل منقذ يقود معركة المصير، حيث يقول شاعر مجهول في رثاء طليطلة:

ألا رجل له رأي أصيل به مما نحاذر نستجير
يكر إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولت كرور
ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح ما هذا الخطير
عظيم أن يكون الناس طرا بأندلس قتيل أو أسير

2.4 الشكل:

تميز شعر الفجيعة الأندلسي بغلبة عنصر العاطفة، وباستثمار الألوان البيانية لتقريب المعاني وتشخيصها، ويعد التشبيه أبرزها، وهو" دلالة على مشاركة أمر لآخر في المعنى،

والمراد بالتشبيه ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية ولا التجريد" (الزمخشري، أساس البلاغة تحقيق محمد باسل عيون السود، 1998، صفحة 493).

ونجد ابن عسال يوظف التشبيه التمثيلي ليسوق أحد أبياته مساق المثل ليؤكد أن بلاد الأندلس قد تخربت، وما عادت صالحة للحياة الكريمة والعيش الهنيء، وذلك بعد سقوط طليطلة مركز ثقل الأندلس وقلبها النابض، فصارت مثل الثوب المنسول من الوسط فيصعب ترقيعه حيث يقول:

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ويعمد الشعراء إلى الاستعارة في إبراز المعاني وبث الحركة والحياة فيها، وهي" أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به " (السكاكي، 1983، صفحة 369).

يقول ابن شهيد في رثاء قرطبة:

يا جنة عصفت بها وبأهلها ريح النوى فتدمرت وتدمروا

شبه قرطبة بالجنة وحذف المشبه، وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، فقرطبة جنة الأرض لجمالها الطبيعي الفتان، ولمعالمها التاريخية الخالدة.

ويصف الشاعر سطوة الزمان عليها، وعلى أهلها" فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس، يجلو الهم حسن منظرها، حين شملها الخراب وعمها الهدم، كأفواه السباع فاغرة، وتريك عواقب أهلها" (الدقاق، 2006، صفحة 206).

وذلك في قوله:

جار الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر

فالشاعر جعل من الزمن جبروتا جائرا شتت أهل قرطبة، وفرق جمعهم وأباد أغلبهم، وهذا على سبيل الاستعارة المكنية.

وعمد الشاعر في القصيدة نفسها إلى الصورة الكنائية في قوله:

سأندب ذاك العهد ما قامت الخضرا على الناس سقفاً واستقلت بنا الغبرا

والخضراء كناية عن موصوف أول وهو السماء، والغبراء كناية عن موصوف ثان وهو الأرض، وفي هذا البيت حسرة فقد مرير لأيام الوصال والأنس في قرطبة، والتي استحالت

إلى واقع أسود بعد أن عفت معاهدها، ومحيت أعلامها فصارت صحار مجدبة وفيافي مقفرة بعدما كانت جنة في الأرض.

ويعمد الشعراء في فن رثاء الممالك والمدن إلى اللجوء إلى الاستفهام البياني، وذلك من خلال خروج الاستفهام إلى معان مجازية تحمل دلالات نفسية يفرضها السياق.

يقول ابن حزم:

وأني ولو عادت وعدنا لعهدها فكيف بمن من أهلها سكن القبرا؟

فالشاعر هنا يحمل بين طيات قلبه أمل في عودة الأيام الخوالي في الأندلس، ولكنها أمنية مستحيلة لأن أهل قرطبة قضوا نحبهم، وصاروا تحت الأرض.

ويقاربه ابن شهيد في نظرته من خلال قوله:

ما في الطلول من الأحبة مخبر ..... فمن الذي عن حالها نستخبر؟

فأسلوب عجز البيت استفهامي غرضه إظهار الحيرة والضياع النفسي بعد ضياع قرطبة والتي صارت خرابا، فلا قادم منها يسأله الشاعر عن حالها.

5. الخاتمة:

بعد هذا العرض الموجز لفن رثاء الممالك والمدن في بلاد الأندلس وخصائصه الفنية – قرطبة وطليطلة- نموذجا توصلت إلى النتائج التالية:

- فن رثاء المدن والممالك في الأندلس فن واسع، يمثل صفحة ناصعة في تاريخ الأدب العربي باعتباره يؤرخ لكفاح أمة وجهاد شعب في حقبة زمنية امتدت على مدار أكثر من ثمانية قرون.

- فن الرثاء من الفنون الشعرية التقليدية التي عرفها العرب منذ القدم، وشهد تطورات وتغييرات فنية عبر العصور بحسب تأثير العوامل والظروف الدينية السياسية والاجتماعية.

- لم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت وتعداد المناقب، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة.

- برع الأندلسيون في فن رثاء الممالك والمدن، وتوسعوا فيه بعد أن غلبهم النصارى، وسلبوهم إرث الأباء والأجداد فوقفوا مفجوعين مذهولين.

- اتسم فن رثاء الممالك والمدن الأندلسية بسمة الأسى العميق والتماس العظة والتأسي في قيام الدول ثم زوالها.

-عمد الشعراء الأندلسيون إلى إبراز المعالم الجمالية لمدنهم المفقودة، مبدين تعلقهم بها داعين إلى استنهاض الهمم.

- غلب على فن رثاء الممالك والمدن الأندلسية عنصر العاطفة، واستثمار التصوير البياني لتقريب المعاني وتشخيصها، واعتماد التلوين البديعي للقصائد والتشكيل الإيقاعي المناسب لشعر النكبة.

المصادروالمراجع:

- ابن الخطيب لسان الدين. (1956). أعمال الأعمال تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت، لبنان: دار المكشوف.
- ابن بسام الشنتريني. (1939). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القاهرة، مصر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- إحسان عباس. (1997). تاريخ الأدب الأندلسي عصر الملوك والطوائف. عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- أحمد أعراب الطرابلسي. (أفريل, 1981). الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي. مجلة عالم الفكر، صفحة 157.
- أحمد حسن بسج. (2002). ديوان ابن الرومي (المجلد ط2). بيروت، لبنان: منشورات محمّد علي بيضون دار الكتب العلمية.
- جار الله محمود الزمخشري. (1979). أساس البلاغة. بيروت، لبنان: دار المعرفة والنشر.
- جار الله محمود الزمخشري. (1998). أساس البلاغة تحقيق محمّد باسل عيون السود. بيروت: منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية .
- سعد إسماعيل شلبي. (1978). البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر. القهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- شوقي ضيف. (بلا تاريخ). الرثاء (المجلد ط4). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- عمر الدقاق. (2006). ملامح الشعر الأندلسي. حلب، سوريا: دار الشرق العربي.
- لسان الدين ابن منظور. (بلا تاريخ). ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، م 14، مادة (نحا). (المجلد ط1). بيروت: دار صادر.
- محمّد حسن قجة. (1985). دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي (المجلد ط1). المملكة العربية السعودية: الدار السعودية للنشر والتوزيع.
- محمّد سهيل طقوش. (2010). تاريخ المسلمين في الأندلس (المجلد ط3). بيروت، لبنان: دار النفائس.
- محمّد عيسى عبد العزيز. (1936). الأدب العربي في الأندلس. القاهرة، مصر: مطبعة الاستقامة.
- يوسف بن أبي بكر السكاكي. (1983). مفتاح العلوم. بيروت: دار الكتب العلمية.